

رغم أنّ الوجود الأوربي في غرب إفريقيا، يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، إلا أنّ استكشاف دواخل هذه المنطقة تأخّر حتى القرن التاسع عشر، والأكيد أن هذا الانشغال الأوربي عن الداخل الإفريقي لقراءة الأربعة قرون لم يكن اختياراً أو إستراتيجيةً مخططاً لها، وإنما كان واقعاً فرضته مجموعة من الظروف والعوامل المختلفة هي:

- وجود الصحراء الكبرى المترامية الأطراف في الجزء الشمالي من إفريقيا، وهو ما شكّل حاجزاً طبيعياً منع الأوربيين من الوصول إلى المنطقة.

- وكما كان هناك حاجز من الناحية الشمالية، فإن الجهة الغربية لم تكن أحسن استضافة للأوربيين. فإذا أخذنا مثلاً الساحل الممتد بين سيراليون وخليج البنين على مسافة ألفين وأربعمائة وأربعة عشر كيلومتراً، فإنه لا وجود لخليج واحد يُمكن أن يحمي سفينة من الرياح والتيارات القوية للمحيط، وكان على السفن البقاء على بُعد ثلاثة كيلومترات من الساحل¹.

- على المناطق الساحلية لخليج غينيا يسود مناخ قاس يمتاز بالحرارة والرطوبة العاليتين²، وهذا ما ساعد على انتشار بعض الأمراض القاتلة، والتي أودت بحياة الكثير من الأوربيين حتى كان خليج غينيا يُسمى "مقبرة الرجل الأبيض"³.

- هذا المناخ أدى أيضاً إلى نمو غطاء نباتي كثيف على طول سواحل إفريقيا الغربية، يبدأ بالغابات والأدغال الكثيفة الممتدة لمئات الكيلومترات نحو الداخل⁴، ليتدرج إلى السفانا مما شكّل مانعاً آخر لأي محاولة أوربية لاخترق الداخل خاصة مع وجود أصناف من الحيوانات المفترسة كالأسود، والحشرات الضارة، مثل ذبابة التسي التسي⁵.

-ترتفع الأراضي من السواحل نحو الداخل، حيث يغلب الطابع الهضابي على أراضي غرب أفريقيا التي تنتهي فجأة بسهول ساحلية ضيقة¹، وتتخلل هذه الهضاب مجموعة من الجبال التي تشكل حداً طبيعياً بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية².
-تضم هذه المنطقة الكثير من الأنهار، ويصب معظمها في المحيط الأطلسي، وهي أنهار غير صالحة للملاحة في أجزاء طويلة من مجاريها³، ولهذا السبب فإن أغلب هذه الأنهار تم كشفها بالطرق البرية المجاورة لها⁴.

-غياب وسائل النقل والاستكشاف حيث اعتمد جُل المستكشفين في تنقلاتهم على الحيوانات كالخيول والبغال والحمير، ضُف إلى ذلك غياب وسائل التبريد والأغذية المحفوظة⁵.

-منذ اكتشافات القرن الخامس عشر الميلادي، لم يكن الأوروبيون يستهدفون في البداية إفريقيا في حد ذاتها، وإنما كان الهدف الوصول إلى أسواق الشرق الأقصى، وكان إهتمامهم ينصبُّ على تجارة التوابل الهندية.

-بعد اكتشاف القارة الأمريكية نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، استحوذت هذه القارة على اهتمام الأوروبيين، لأن عملية اختراقها كانت أسهل، ووفرت فرصاً تجارية واقتصادية واعدة مقارنة بإفريقيا.

-عندما وصل الأوروبيون إلى السواحل الغربية لإفريقيا وقعوا فجأة على تجارة "مُربحة" أبعدتهم لمدة طويلة عن التفكير في التوغل إلى المناطق الداخلية، ونقص هذا تجارة العبيد التي درت أموالاً طائلة على الأوروبيين، خاصة أن تجار العبيد المحليين

ثانيا: نتائج الكشوفات الجغرافية:

استغرق استكشاف دواخل إفريقيا الغربية قرابة القرن؛ أي ما بين نهايتي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وهي فترة انجرت عنها العديد من النتائج، أبرزها:

1- التغلغل الاستعماري في المنطقة:

عندما زادت معرفة الأوروبيين بمنطقة غرب إفريقيا، وبالخيرات التي تتمتع بها انطلق الصراع الاستعماري الأوروبي عليها، خاصة بين فرنسا وبريطانيا صاحبتَي الحضور القوي في الساحل الغربي لإفريقيا بعد أن خفت الوجود البرتغالي والإسباني والهولندي في المنطقة خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

بالنسبة لفرنسا، وبعد الهزائم المتلاحقة لنابليون بونابرت، كانت الرغبة في إعادة بناء الإمبراطورية الفرنسية ملحّة جداً، وازداد الحماس الاستعماري لإفريقيا في عهد نابليون الثالث (1848-1870م)²، ليبلغ ذروته بعد مؤتمر برلين سنة 1884م. والحقيقة أن تقدم فرنسا في غرب إفريقيا تسارعت وتيرته في النصف الثاني من هذا القرن، وكان التقدم الفرنسي في هذه المنطقة يسير وفق سياسة تميّزت بالحذر والصبر³، لكنه كُئِلَ في النهاية، ببناء إمبراطورية فرنسية في المنطقة بلغت مساحتها أربعة ملايين

وستمئة ألف كيلومتر مربع، أي سُدُس القارة الإفريقية¹، و هي الإمبراطورية التي حملت إسم إفريقيا الغربية الفرنسية، وضمت السنغال، موريتانيا، السودان الفرنسي (مالي)، غينيا كوناكري، كوت ديفوار، بنين، النيجر وبوركينا فاسو².

أما بريطانيا فاهتمامها بالأراضي الداخلية في غرب إفريقيا سينطلق بعد أن أصبح بنجامين ديزرايلي Benjamin Disraeli رئيساً للوزراء سنة 1874م، وهو الذي سيشجع التوسع الاستعماري لبلده في المنطقة. لم يكن التوغل البريطاني في المنطقة سهلاً، ففي منطقة ساحل الذهب (غانا) واجه البريطانيون مقاومة شرسة من قبائل الأشانتي، لكنهم في النهاية استطاعوا إخضاع المنطقة على ثلاث مراحل، الأولى سنة 1874م، والثانية عام 1896م، والثالثة عام 1900م، ليتم إلحاق أراضي هذه القبائل إلى مستعمرة ساحل الذهب البريطانية³. أما في نيجيريا كان الأمر مختلفاً، حيث استطاع البريطانيون إيصال نفوذهم إلى بلاد/هاوسا بفضل جهود التجار البريطانيين⁴، الذين وقَّعوا العديد من الاتفاقيات التجارية مع الزعماء المحليين، وبعد اتفاقية تقسيم مناطق النفوذ في المنطقة بين بريطانيا وفرنسا سنة 1890م، ازداد النفوذ ليشمل معظم بلاد اليوروبا مع حلول عام 1896م⁵.

2- توقف تجارة الرقيق:

من الفضائل التي تُحسب للمستكشفين الأوروبيين المساهمة في منع تجارة الرقيق في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وإن كانت هذه الفضيلة لا تشمل جميع المستكشفين وإنما البعض منهم فقط. والحقيقة أن هؤلاء المستكشفين، من خلال كتاباتهم التي رصدتها الجمعيات والصحف، عرَّفوا الرأي العام الأوروبي بطريقة غير

مباشرة بالمعاناة التي كان يتكبدھا السود في غرب إفريقيا على يد تجار الرقيق المحليين والأوربيين على حدٍ سواء. و إذا كان هناك من المستكشفين من اكتفى بنقل معاناة العبيد، فهناك آخرون طلبوا صراحة من حكوماتهم التدخل لمنع هذه المعاناة وإيقاف تجارة الرقيق على غرار المستكشف الفرنسي بول صوليهيه Paul Soleillet، كان صوليهيه من المعارضين لتجارة الرقيق وأنواع الذل والاستعباد التي كان يتعرض لها العبيد، وللتخفيف من معاناتهم اقترح هذا المستكشف شراء العبيد ونقلهم إلى الصحراء من أجل تعميرها بالزراعة، وتقديم المساعدات اللازمة لهم كأدوات الزراعة وبناء القرى والمدن لاستقبالهم، وبعد ذلك تُمنح لهم الحرية وفق التزامهم بالعمل، وبذلك يتحقق تعمير الصحراء القاحلة واستغلالها، وفي نفس الوقت المساهمة في القضاء على تجارة الرقيق¹.

3- إثراء التراث الجغرافي والتاريخي:

تمكّن المستكشفون من تحقيق العديد من الاكتشافات الجغرافية والدراسات والبحوث حول المنطقة من النواحي السياسية، الاقتصادية، التاريخية، الاجتماعية والثقافية. ويمكن الاطلاع على نتائج هذه الدراسات في الكتب التي كتبها ونشرها هؤلاء المستكشفين، وهي كثيرة وحافلة بالمعلومات، وساهمت بشكل كبير في توثيق تاريخ المنطقة. و لا يتسع المكان هنا لذكر كل هذه الكتب والمنشورات، ولكننا سنكتفي هنا بذكر أهم النماذج، منها:

- رحلات في الأقاليم الداخلية من إفريقيا *Travels in the Interior Districts of Africa*: هو الكتاب الذي أصدره مונجو بارك في سنة 1799م، سرد فيه مشاهداته حول كل المناطق التي زارها، مقدماً وصفاً دقيقاً للسكان وعاداتهم، والمناخ، والتجارة، وكل الصعوبات والمخاطر التي واجهها في رحلته².

- يوميات رحلة إلى تمبكتو وجني في الصحراء الوسطى *Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans le Sahara central* هي عنوان مذكرات المستكشف رونيه كاييه، أصدرها في كتاب من ثلاثة أجزاء.

- يوميات رحلة لكشف مجرى ومصب نهر النيجر *Journal of an expedition to explore the course and termination of the Niger* هو الكتاب الذي ضم مذكرات الأخوين لاندر حول رحلتها واستكشافها لنهر النيجر ومصبه، وقد صدر سنة 1832م¹.

- سرد للرحلات والاكتشافات في شمال نيجيريا *narrative of Travels and Discoveris in Northern Nigeria* هو عنوان الكتاب الذي ألفه ديكسون دنهام الذي تمكن، إلى جانب والتر أودني وهوغ كلايرتون، من اكتشاف بحيرة تشاد ونقى الاتصال بينها وبين نهر النيجر، كما أنه عرّف بالعديد من الشعوب والبلاد والمدن المكتشفة والطرق التجارية، ودفع الجغرافيين الأوروبيين إلى الاستغناء عن كتاب حسن الوزان الذي كان إلى ذلك الوقت مصدرهم الرئيس عن المنطقة².

- رحلات واكتشافات في إفريقيا الشمالية والوسطى *Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale* ترك هاينريش بارث تراثاً علمياً واسعاً تضمّن كتابه هذا، ذو الخمسة أجزاء، وفيه سجل كل الملاحظات والنتائج والحقائق التي شاهدها وتوصل إليها خلال نصف عقد من التجوال عبر البحار والصحاري والحمادات والأنهار، شاهد فيها شعوباً وقبائل متعددة، بعادات وتقاليد ومعتقدات متنوعة. هذا الكتاب يُعتبر من أوسع وأكمل الأعمال التي يفخر بها أدب الاكتشافات الجغرافية في القارة الإفريقية، وقد طُبِع عدة طبعات، وتُرجم إلى عدة لغات³.